الجديد في موضوع فصل الصحراء عن الشمال : المساعي الاستعمارية للشيخ محمد محمود بن الشيخ، الأرواني، المعروف بقاضي تمبوكتو

د. محمد بن داره
جامعة أدرار

ملخص:

خلال حرب التحرير الجزائرية كلّفت السلطات الفرنسية بالجزائر شخصية دينية كبيرة من جنوب الصحراء، من مدينة تمبوكتو بجمهورية مالي، تدعى محمد محمود بن الشيخ الأرواني، المعروف بقاضي تمبوكتو، كلفته بالقيام بحملة دعائية واسعة لصالح الوجود الفرنسي بالجزائر وإعداد الأرضية وتهيئة سكان الصحراء لتبني وقبول مشروع الحكومة الفرنسية القاضي بتوحيد المناطق الصحراوية الداخلة ضمن مجال تدخّل المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، والتابعة لكل من الجزائر وموريطانيا ومالي والنيجر وتشاد ضمن وحدة سياسية مستقلة ومنفصلة عن أقاليمها الأم. وقد قبل قاضي تمبوكتو هذه المهمة التي أداها بكثير من القناعة والهمة والتفاني من خلال زيارات متعددة نُظمت له لزيارة الجزائر الشمالية والصحراء. لذلك فإن هدف هذا المقال هو تتبع القاضي خلال زياراته إلى الصحراء للوقوف على وقائع هاته المؤامرة وإماطة اللثام وتسليط الضوء على فترة حرجة من تاريخ الجزائر، كانت فيها هذه الأخيرة مهددة في وحدتها الإقليمية بالتقسيم والفصل.

Résumé :

Durant la guerre d'Algérie, une grande personnalité religieuse subsaharienne, originaire de l'actuelle République du Mali, nommé Mohammed Mahmoud Ibn cheikh, dit « Cadi de Tombouctou », s'est vu confié une mission de la part des autorités françaises d'Algérie pour mener une action de propagande en faveur de la présence française en Algérie, et de préparer le terrain et susciter l'adhésion des « populations sahariennes » au projet du Gouvernement français d'ériger les zones sahariennes, faisant parties de la zone d'intervention de l'O.C.R.S. (Organisation Commune des Régions Sahariennes) et dépendants de

l'Algérie, de la Mauritanie, du Mali et du Niger et du Tchad, en une entité politique distincte et séparée des territoires limitrophes.

Le Cadi de Tombouctou a accepté volontiers cette mission qu'il accomplisse avec beaucoup de zèle et conviction à travers plusieurs visites organisées pour lui à cet effet, en Algérie du Nord et au Sahara algérien. L'objectif de cette article est de suivre les pas de ce Cadi dans son périple saharien afin d'éclairer une période délicate de l'histoire de l'Algérie, où celle-ci était gravement menacée dans son unité territoriale par la sécession et le partage.

لا يزال موضوع " فصل الصحراء عن الشمال " من قبل المستعمر الفرنسي خلال فترة الاحتلال يُسيل الكثير من الحبر في الكتابات التاريخية الجزائرية، التي حولته إلى " قضية " بالرغم من أن أركان هاته القضية لم تتوضح بكيفية جلية. صحيح أن هناك عدد من القرائن التي تتبث وجود نية قوية لدى فرنسا للاستئثار بهاته المناطق الصحراوية في مقابل منح الاستقلال للشمال، أي التل، كحل محتمل للمشكل الجزائري، لكن هناك العديد من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات لكي تستكمل القضية أركانها، من ذلك : كيف كان التصوّر لفصل هاته المناطق وإنشاء جمهورية صحراوية ؟ وما هي المساعي والمبادرات التي باشرتها فرنسا في هذا الاتجاه ؟ ومن هم الأشخاص أو الشخصيات من الأعيان أو غيرهم الذين يكونون قد تلقوا عروضا في هذا الاتجاه وقبلوا السير في المشروع ؟ ثم لماذا فشل المشروع ولم يكتب له النجاح ؟... إلى غير ذلك من الأسئلة الأخرى التي تحتاج في إجاباتها الاعتماد على مصادر أولى من الوثائق الأرشيفية، والتي بدون الرجوع إليها يبقى الحديث في هذا الموضوع ضرب من التخمين[1].

[1] – ذلك ما لمسناه عن قرب عند تناولنا لهذا الموضوع في رسالتنا للماجستير حيث لم نظفر بأي وثيقة رسمية في الموضوع. أنظر: محمد بن داره، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، رسالة ماجستير مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر تحت إشراف الدكتور جمال قنان، 1999، ص 145.

في هذا الإطار، يفترض هذا المقال تقديم مساهمة متواضعة لإماطة جزء من اللثام عن هذا الموضوع من خلال التعريف بالمساعي الاستعمارية لإحدى الشخصيات التي قبلت السير في المشروع الاستعماري لفصل هاته المناطق. هاته الشخصية هي الشيخ محمد محمود بن الشيخ الأرواني، المعروف بقاضي تمبوكتو. وهي – في حدود علمنا– واحدة من أربع شخصيات ارتبط اسمها بهذا الموضوع : اثنان منها تلقت عروضا فرنسية وكان موقفها الرفض – إلى أن يتبث العكس– هما الشيخ إبراهيم بيوض[1] والحاج أخاموخ [2] ؛ وشخصيتان قبلتا العرض الفرنسي وانساقتا وراءه، هما : الشيخ حمزة بوبكر [3] والشيخ محمد محمود الأرواني، المعروف بقاضي تمبوكتو الذي هو موضوع هذا المقال.

نحن الآن في سنة 1957، حيث مرّ على حرب التحرير الجزائرية قرابة العامان والنصف على اندلاعها، والتي أصبحت تمثل تهديدا حقيقيا للوجود الفرنسي بشمال إفريقيا. في نفس الوقت، وفي الصحراء، توّجت الجهود الفرنسية في مجال البحث والتنقيب عن النفط باكتشافات نفطية وغازية هامة في كل من حقلي حاسى مسعود وحاسى الرمل جوان ونوفمبر 1956. هذان الاكتشافان أكدا تربّع المناطق الصحراوية على إمكانيات طاقوية هامة من شأنها أن تُغيّر جذريا من مستقبل فرنسا الاقتصادي والسياسي، وبالأخص أن هاته الأخيرة ما فتئت تبحث لها عن استقلالية طاقوية تُدعّم بها استقلالية قرارها السياسي. وبالتأكيد كان لهذا المعطى الجديد أثره الخاص لدفع ساسة فرنسا إلى استشراف مستقبل هاته المناطق من زاوية أخرى. وبالفعل تم خلال هاته السنة، وبالتحديد بتاريخ 02 جانفي 1957، إنشاء" المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية "

---

[1] – أنظر: بيوض عبد الله بن عمر، أعمالي في الثورة، نشر جمعية التراث القرارة– غرداية، 1990 ص، 147.

[2] – *Cf*, Mohammed Guentari, Organisation politico- administrative et militaire de la Révolution algérienne de 1954 à 1962, volume II, Alger, O. P. U., 1994, p. 678

[3] – محمد بن داره، **السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية**، ص 145– 146.

O.C.R.S. [1]، التي كان طابعها السياسي والاقتصادي ومجال تدخلها يثير الكثير من التساؤلات ويُغذي مخاوف الجيران؛ وفي جوان منه تم استحداث العمالتين الصحراويتين الساورة والواحات، اللتان ألحقتا مباشرة بالمتروبول، أي بفرنسا، وأُخضعتا لنفس التشريع المطبق في العمالات الفرنسية بفرنسا [2]، كل ذلك إمعانا وتمهيدا لتكريس فصلهما عن الجزائر.

ولأن منظرو السياسة الفرنسيين كانوا على قناعة تامة بأن كل هاته الإجراءات ليست كافية بذاتها لفرض أمر واقع وفصل هاته المنطقة عن وطنها الأم ما لم يتم دعمها بمطلب محلي يجعل من الانفصال والاستقلال مطلبا استراتيجيا لدى سكان المنطقة. فقد كان لا بد من البحث وإيجاد نخبة محلية فاعلة تتبنى وتدافع عن مشروع الفصل وتعمل على إيجاد حركة رأي عام واسعة بين السكان تُروّجُ للانفصال وتشجع عليه.

لتحقيق هاته المهمة، كان يطلب من مختلف الأجهزة والهيئات العسكرية والمدنية الفرنسية البحث عن عناصر يمكنها الاضطلاع بمسؤوليات بين السكان، عناصر، تتوفر فيها المواصفات الخاصة بالزعامة والقيادة، التي تُمكنها، بفضل ما أوتيت من قدرات وملكات ذهنية، فطرية ومكتسبة، كالذكاء وقوة الشخصية والمستوى التعليمي الجيد، الخطابة والقدرة على الإقناع، الهمة والنشاط والمكانة الاجتماعية... وغيرها، أن تسود وسطها وأن يؤثر عليه وأن تقود الجماهير نحو المصير الذي تحدده لهم فرنسا. ولأهمية هذه العناصر كسلاح من أسلحة الحرب النفسية ولنذرتها في نفس الوقت فقد كان يجرى البحث عنها في كل مكان ومهما كان أفقها [3] . وضمن هذا الإطار كانت الاستعانة بخدمات الشيخ محمد محمود

---

[1] - *Journal Officiel de la République Françaises*, 11 janvier 1957.

[2] - *Journal Officiel de la République Françaises*, 7 décembre 1960, p.10988.

[3] – للتوسع أكثر حول هذا الموضوع، يُنظر : محمد بن داره، الحرب النفسية الفرنسية و رد فعل الثورة الجزائرية 1955– 1960، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف الدكتورة مسعودة يحياوي، جزآن، 2010، ص ص 157– 159.

الأرواني، المعروف بقاضي تمبوكتو، الذي كان اختياره موفقا إلى أبعد الحدود : فبالرغم من كونه غير جزائري – ولد ونشأ في أروان شمال تمبوكتو، مالي، أي إقليم إفريقيا الغربية الفرنسية **A. O. F.** – فقد كان له في شخصه كرجل دين وفقيه راسخ القدم في العلوم الشرعية وعالم واسع الإطلاع، ثم في قوة شخصيته كخطيب مفوه صاحب حجة قوية لها القدرة على الإقناع، ثم أخيرا وبالخصوص قناعاته الشخصية الموالية للفرنسيين... كل ذلك جعل منه عيّنة مهمة تصلح بامتياز لتحقيق المهام التي أسندتها له الإدارة الاستعمارية بالجزائر[1].

لا ندري تحديدا البدايات الأولى لتعامل هذا الشيخ مع الفرنسيين، وإن كنا لا نستبعد أن توليه لمهام القضاء في بلده الأصلي كان كافيا لجلب انتباه الإدارة الفرنسية له مند مدة طويلة. كما أن قناعاته الفرنسية كانت كافية لتقربه أكثر من المسؤولين الفرنسيين، مدنيين وعسكريين، الذين ولا شك رأوا فيه " صيدا ثمينا " قد يكون له شأن كبير فأحاطوه بما يليق بقدره من الحفاوة والتكريم. وفي هذا الإطار تكون إدارة إفريقيا الغربية الفرنسية **.(A.O.F)** قد أخطرت وزارة فرنسا ما وراء البحر بشأنه فقامت هذه الأخيرة بوضعه تحت تصرف الولاية العامة بالجزائر.

على أن أقدم الوثائق التي اطلعنا عليها حول صلات هذا القاضي بالسلطات الاستعمارية بالجزائر تعود إلى سبتمبر 1955 عندما زار الجزائر عائدا من الحج

---

[1] – قاضي تمبوكتو هو محمد محمود بن الشيخ بن سيدي ببكر بن القاضي. ولد في مدينة أروان، شمال تمبكتو، سنة 1910 ونشأ في عائلة عريقة عُرفت بالاشتغال بالعلم والقضاء والتجارة. تعلم تعليمه الأول في مدينته أروان على يد والده وأعمامه وأخواله وعلماء عصره، ثم ارتحل به والده إلى مدينة تمبكتو التي كانت تمثل قلب الحركة الفكرية في غرب إفريقيا فاشتغل بها بالتدريس وتولى بها مهمة القضاء وصار قاضيها الوحيد الذي تقف عليه الفتوى والمشورة والقضاء والإمامة. توفي رحمه الله ببلده تمبوكتو بتاريخ 25 نوفمبر 1973 بعد حياة حافلة بالأسفار والاشتغال بالسياسة والتاليف، تاركا أكثر من ثلاثين مؤلفا في شتى الفنون والأغراض. ينظر : محمد محمود الأرواني، تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان في جميع البلدان، دراسة وتحقيق وتقديم أ. د. الهادي المبروك الدالي، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، 2008، ص 364.

بهدف " السياحة " والقيام باتصالات مع عدد من الشخصيات، بعضها صديق لفرنسا وبعضها الأخر عدو لها، كشخصيات جمعية العلماء المسلمين على سبيل المثال[1]. خلال هاته الزيارة للجزائر كان قاضي تمبوكتو يتوفر على توصية خاصة من وزارة فرنسا ما وراء البحر. كما وصفته نفس المراسلة بأنه ذو " ولاء أكيد لفرنسا "، هذا الولاء عبر عنه بتصريحات علنية في حوار صحفي خصته به جريدة البرلمان (**Le Journal du Parlement**) وأعادت نشره جريدة إيكو دالجي (***Echo d'Alger***) بتاريخ 15 سبتمبر 1955 [2].

1- مهمة الشيخ محمد محمود، قاضي تمبوكتو، بالجزائر

بعد زيارة خاطفة إلى تونس، نُظمت لقاضي تمبوكتو زيارة إلى مدينة قسنطينة دامت ثلاثة أيام. وخلال زيارته لمكتب "مصلحة التنسيق لشمال إفريقيا " (**SLNA, Service de Liaison Nord Africaine**)، وهو المكتب المكلف بالاستعلام حول الجزائريين ورصد توجهات الرأي السائدة فيهم لإخطار السلطات الاستعمارية واستباق الأحداث المترتبة عنها، عدد قاضي تمبوكتو أهداف زيارته كالتالي [3]:

- عقد لقاءات مع الشيوخ والشخصيات الإسلامية الممثلة للاتجاهين الإصلاحي والتقليدي المحافظ لمعرفة موقفهم تجاه الثورة.

- دعوة هؤلاء الشيوخ والزعماء الدينيين إلى أخذ موقف ضد الإرهاب – أي ضد الثورة– التي يرى بأنها تتعارض صراحة مع تعاليم القرآن.

- تنبيه هؤلاء الشيوخ والزعامات الدينية أن من واجبهم كمسلمين صالحين أن يصدروا تصريحا مشتركا وعلنيا يُدينون فيه جرائم الثورة.

---

[1] - CAOM, SLNA, boite n° 93- 4283, lettre du Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie à Monsieur le Préfet de Constantine, n° 2206 du 15 septembre 1955.
[2] - CAOM, SLNA, boite n° 93- 4283, coupures de presses.
[3] - CAOM 93- 4283, Note succincte du SLNA, 23 septembre 1955.

– أخيرا، تقديم البرهان لهم على أن الحضور الفرنسي بالجزائر تقتضيها الضرورة والمصلحة.

ويبدو من تقرير المصلحة أعلاه أن الشيخ قد مارس تأثيرا قويا على محدثيه ومستمعيه، الذين يكونون قد أنبهروا بسعة علمه ورسوخ ثقافته العربية، وبصراحته ومنطقه وقوة تأثيره النفسي[1]. وفي ختام زيارته لهاته المدينة أجرى القاضي لقاء صحفيا مع جريدة لاديباش دو كوستنتين **(La Dépêche de Constantine)** أدان فيه ما أسماه « الإرهاب»، أي الثورة [2].

هده الزيارة الأولى لمدينة قسنطينة قد وضعت الأسس لمهماته المستقبلية في الجزائر، والتي تكون غايتها الأساسية التنديد بالثورة والعمل على تجريدها من صفة " الجهاد " ووصفها " بالتعارض مع القرآن " وذلك من خلال عقد لقاءات برجال الدين الإسلامي من مختلف التيارات لدفعهم إلى " الخروج عن صمتهم وإدانة الثورة بصفة علنية " وكذلك الالتقاء بالجماهير من مختلف الأوساط الذين كانت تتولى الإدارة حشدهم له في القاعات ليستمعوا إليه. وفي هذا الإطار كانت الإدارة الاستعمارية تتولى تسطير برنامجه وتنظيم لقاءاته والتكفّل به وتسخير جميع وسائل النقل له.

ومع مرور الوقت وتطوّر الأحداث وظهور معطيات جديدة بالجنوب الجزائري، كان من أهمها تحقق اكتشافات نفطية وغازية بكل من حاسي مسعود وحاسي الرمل في جوان ونوفمبر 1956، وما ترتب عنها من بروز توجهات استراتيجية جديدة لدى الحكومة الفرنسية حول مستقبل هاته المناطق[3]، تم إسناد مهمة أخرى إلى قاضي تمبوكتو تتمثل في الإعداد والترويج لمشروع فصل هاته المناطق بما

---

[1] – نفس المصدر السابق.

[2] - CAOM 93- 4283, coupures de presse, *La Dépêche de Constantine* du 24 septembre 1955.

[3] – حول مجمل التطورات المتعلقة باكتشاف البترول بالصحراء الجزائرية و ما ترتب عنه من سياسة استعمارية للحكومة الفرنسية، أنظر : محمد بن داره، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، مرجع سابق

يُسهّل من مهمة الحكومة الفرنسية في هدا الإتجاه. وعليه، فسنقتصر في مقالنا هذا على تناول المهمة الثانية لقاضي تمبوكتو بالصحراء الجزائرية، مرجئين تناول المهمة الأولى إلى عمل أخر.

2- الزيارة الأولى للقاضي إلى الصحراء الجزائرية 26 ديسمبر 1956- 10 جانفي 1957

2 – 1 زيارة قاضي تمبوكتو إلى تندوف

بحسب الوثائق الأرشيفية التي اطلعنا عليها، كانت أول زيارة لقاضي تمبوكتو للصحراء الجزائرية تعود إلى تاريخ 4 أكتوبر 1955 عندما أقلته طائرة خاصة إلى قرية تندوف، لزيارة قبر وليها سيدي بلعمش والالتقاء ببعض أفراد قبيلة الجاكان [1] وعلى رأسهم قائدها عبد اللهى ولد سيدي. حيث اغتنم فرصة لقائه بهم لتمرير بعض الرسائل. فكان مما وعظهم به : «إنني أداة من أدوات الله وأطلب منكم إتباع فرنسا مثلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اسمعوا وأطيعوا لرؤسائكم طالما أن هؤلاء لم يمنعوكم من دينكم ولم يخرجوكم من دياركم... » [2].

ثم استطردا شارحا وموضحا : « فهل وضع الفرنسيون عراقيل لأداء واجباتكم الدينية ؟ لا. فهل أخرجوكم من دياركم ؟ بالطبع لا، فإنهم هُم من يُصلح لكم هاته المساجد عندما تتضرر وهم من ترك لنا حرية التعليم بالعربية ويحترم رمضان وأعيادنا. فماذا تريدون أكثر من هذا ؟ ولكن من يروّج لهاته الدعاية ؟ فلعلها مصر العربية، حيث يعيش الآلاف من فلاحيها أوضاعا بائسة، وحيث يُضطهد فيها الإخوان المسلمون لأنهم يريدون إتباع دينهم؛ أو لعلها المملكة

[1] – قبيلة الجاكان، و تلفظ أيضا بـ : تَجَكَان وتاجكنت، هي إحدى قبائل المور، ذات الأصل المشترك العربي و البربري، فرع من لمتونة التي هي بدورها فرع من صنهاجة. يتكلم الجكان الحسانية وهي لهجة عربية و تتوزع القبيلة بين كل من الجزائر، موريطانيا، الصحراء الغربية والمغرب ومالي. أنظر : http://fr.wikipedia.org/wiki/Tadjakant

[2] - CAOM, boite n° 23H 72, Commune indigène de Tindouf, Bulletin de Renseignements n° 11.

العربية السعودية! إذن لست في حاجة لأن أشرح لكم طرقها وشُرطتها وتنظيمها فالكثير منكم حجّ إليها وبإمكانه أن يشهد مثلي على حالة الفوضى السائدة بهاته المملكة. أو لعلها تونس إذن ! التي انتظرت الحصول على الاستقلال الداخلي [؟] لتجعل في حكومتها يهودي ! فأيهما الأحق إذن بالإتباع: اليهودي أم الفرنسي؟ »[1] .

كما كانت لقاضي تمبوكتو زيارة الثانية لهاته المدينة في الثلاثين من أكتوبر سنة 1956، أي سنة كاملة بعد زيارته الأولى، حيث وصلها من أغادير على متن طائرة خاصة رفقة الرائد كاردار **(Commandant Cardaire)** المكلف بالشؤون الأهلية بإقليم إفريقيا الغربية **(A. O. F.)**. وقد حرص قاضي تمبوكتو خلال هاته الزيارة لتندوف على لقاء كل أفراد قبيلة الطاجكان بالقرية بالإضافة إلي العرب الشراقة والمجندين من الأفارقة السودانيين المنتمين للكتيبة الحادية عشر س. أس. بي. أ. **(11° C.S.P.A.)** كما اغتنم الفرصة لتوجيه خطاب للجميع، تطرق فيه إلى عدد من النقاط لدحض " إدعاءات الثورة ". فبالنسبة إلى ما تدعيه الثورة من قيامها بالجهاد المقدس : قال قاضي تمبوكتو: « إن المتمردين يشنون اليوم حربا على فرنسا باسم الجهاد المقدس وهذا مخالف لتعاليم القرآن، لأنه من شروط إعلان الجهاد أن لا نكون في حلف مع الدولة التي نحاربها؛ وأن لا نعتمد عليها على الصعيدين المالي والاقتصادي – [في إشارة ضمنية إلى المغرب، الذي يتلقى مساعدات مالية واقتصادية من فرنسا ويقوم في نفس الوقت بتقديم التسهيلات إلى الثوار الجزائريين على أراضيه]– ؛ ثم أخيرا، إخطار الكافر بمكان وزمن المعركة»[2] . وردا على المزاعم المغرب بمغربية تندوف، قال قاضي تمبوكتو : « الأولى للجاكان أن يطالبوا بالمغرب، وبالأخص مراكش، بدلا من

[1] – نفس المصدر السابق

[2] - CAOM, Boite n° 23H 74, Territoire Militaire d'Ain Sefra, Bulletin de Renseignement, mois de novembre 1956, p. 17.

مطالبة المغاربة بتندوف. ألم ينحدر يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش من الملثمين، تماما مثل الجاكان !»[1] . وحول دعاية الوطنيين التي تزعم بأن المتعاونين مع فرنسا ليسوا مسلمين حقيقيين، رد قاضي تمبوكتو متسائلا : « إذن ما مصير آبائنا ومن قبلهم أجدادنا الذين عملوا منذ أكثر من قرن مع الفرنسيين ؟ » [2] . ثم واصل مستطردا : « إذن يجب العودة دائما إلى المصدر، إلى القرآن. ألم يأمر النبي بقبول وبدون تحفظ حكومة المسيحيين، طالما هؤلاء لم يخرجوكم من دياركم ويحولوا بينكم وبين ممارستكم لدينكم. والحق أن هؤلاء كانوا دائما يمتنعون عن القيام بذلك، بل هم الذين يعينونكم في آداء واجباتكم الدينية » [3] .

2- 2 زيارة قاضي تمبوكتو إلى مدينة بشار

خلال الفترة ما بين 18 و22 نوفمبر 1956 قام الشيخ محمد محمود بن الشيخ بزيارة لمدينة بشار وزار مسجدها وخطب فيه. ولما كان الظرف الدولي مشحون بالاعتداء الثلاثي على مصر، فلم يفته التعرض لهاته المسألة قائلا : « يخطئ من يظن أن فرنسا قد أصبحت قوة مهزومة، لأن الفرنسيين لم يترددوا في قنبلة القاهرة. ولو أرادت فرنسا شن حرب شاملة في الجزائر لكانت قد ربحتها وكان بإمكانها قنبلة المغرب وتونس أكثر من القاهرة » [4]. ثم عقد لهم المقارنة التالية بين الفرنسيين والمسلمين – أي الجزائريين- قائلا : « إن المسلمين هم مثل الغزلان في عبثهم وتقلبهم وعدم ثباتهم، بينما فرنسا هي مثل الحمار في صبره وأناته، تسير مثابرة في خط مستقيم نحو الهدف الذي تبتغيه، وهي تصل إليه دائما. تذكروا ما يقوله القرآن، فقد جاء في التفاسير، أنه بعد الفتوحات التي

---

[1] – نفس المصدر السابق، ص. 17.

[2] – نفس المصدر السابق، ص. 17.

[3] – نفس المصدر السابق، ص 18.

[4] – نفس المصدر السابق، ص 18.

يحققها العرب، سيخضع هؤلاء لحكم الروم وهذا إلى غاية نزول المسيح عليه السلام. عندئذ لن يكون هناك لا مسيحيين ولا مسلمين وإنما هناك إخوة يتبعون دينا واحدا ويعيشون في سلام » [1]. ثم يختم مستطردا : « هل لكم ما تشتكون به من فرنسا ؟ لأنكم لو كنتم مسلمين حقيقيين ما كان لكم أن تفعلوا ! ففرنسا تُعين الإسلام وتبني المساجد والمدارس والمستشفيات والطرق. فهل كان لكم شيئا من ذلك قبل مجيء الفرنسيين ؟ ثم أجيبوني : هذا المغرب الذي ما تفتئوا تتحدثون عنه كثيرا، من أحدثه ؟ أليست فرنسا هي التي أحالته إلى جوهرة ثم أهدتها إلى الملك ! » [2] .

تلك هي عيّنات من الدعاية التي كان يمارسها الشيخ محمد محمود، قاضي تمبوكتو، على الجزائريين من سكان الجنوب خدمة لأهداف المستعمر. ويلاحظ هنا أن الشيخ لم يتعرض في خطبه إلى موضوع فصل الصحراء عن الشمال، وسبب ذلك بسيط هو أننا هنا في أواخر سنة 1956، حيث لم يصدر بعد قانون 10 جانفي 1957 المنشئ للمنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية **(O. C. R. S.)** التي يُعتبر إنشاؤها البداية الفعلية لتنفيذ مشروع الفصل. علما أن مختلف التقارير الصادرة حول النشاط الدعائي لقاضي تمبوكتو، كانت تثني على الشيخ وعلى صدق قناعته ونجاحه في إبهار مستمعيه وإفحام المترددين والمعادين لفرنسا بالحجة الدامغة المدعّمة بالشواهد من النصوص الدينية.

2- 3 زيارة الشيخ محمد محمود إلى إليزي، فور بولياناك **(Fort Polignac)**

في الفترة ما بين 30 ديسمبر 1956 إلى 5 جانفي 1957 قام الشيخ محمد محمود بزيارة إلى عدد من المدن والواحات الصحراوية بدأها بإليزي وهذا للقاء زعيم توارق الآجار براهيم آثْ أَبَكَدَا، حيث قضى الليلة في معسكره يتحادث

[1] – نفس المصدر السابق، ص 18.

[2] – نفس المصدر السابق، ص 19.

معه مطولا ومع حاشيته. في تقريره عن هذا اللقاء لم يورد الشيخ محمد محمود أي ذكر لموضوعه الأساسي المتعلق بفصل الصحراء واكتفى بنقل معلومات عن زعيم التوارق، معنوياته وانطباعاته وبعض مواقفه تجاه عدد من المسائل، دون أن يفوت القاضي، كلما اقتضى الأمر ذلك، التدخّل لتصحيحها وتعديلها بما يتوافق ومصلحة الفرنسيين [1] . فمن ذلك مثلا حادث انسحاب الفرنسيين من إقليم فزان " دون أن يدافعوا عن وجودهم فيه ولو بطلقة واحدة ". وهو ما لم يفهمه التوارق ورأوا فيه دليلا عن العجز والضعف. وبطبيعة الحال، تدخّل هنا قاضي تمبوكتو لتصحيح الفكرة وإعادة الأمور إلى نصابها : فبيّن أن جلاء الفرنسيين عن فزان لم يكن عن ضعف وإنما كان وفاء لعهد واحتراما لكلمة معطاة ! [2]

2- 4 زيارة قاضي تمبوكتو إلى تيماسين بتوڤرت:

بعد زيارة كل من سيدي عقبة وتولڤا، توجه قاضي تمبوكتو إلى تيماسين وخطب في مسجدها ومسجد توڤرت وزار شيخ الطريقة التيجانية الذي بدا له شخصا انتهازيا. ومنها انتقل إلى بوسعادة حيث التقى بعدد من شيوخ الزوايا وأئمة المساجد، الذين كان يستمع إليهم بإصغاء شديد ليرصد انطباعاتهم ومواقفهم من المسائل المختلفة وتصورهم لحل المشكل الجزائري وكان ينقل كل ذلك في تقاريره. كما لم يكن يتردد للتدخل عند الحاجة للدفاع عن سياسة الحكومة الفرنسية وشرح مواقفها لمنتقديها [3] .

2- 5 زيارة قاضي تمبوكتو إلى العبادلة

وبعد زيارته للجهة الشرقية للصحراء الجزائرية، خصص القاضي الفترة ما بين يومي 6 و10 جانفي 1957 لزيارة الجهة الغربية للصحراء الجزائرية، حيث زار

---

[1] - CAOM, boite n° 93- 4283, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou Mohammed Mahmoud en Algérie, du 26 décembre au 10 janvier 1957, p. 12

[2] - CAOM, boite n° 93- 4283, SLNA de Constantine, Visite à Constantine du Cadi de Tombouctou, Mohamed Mahmoud ould Cheikh, n° 28/NAC, 10 janvier 1957, p. 2

[3] - CAOM, boite n° 93- 4283, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou Mohammed Mahmoud en Algérie, du 26 décembre au 10 janvier 1957, p. 18.

القاضي قرية العبادلة للقاء بعض أعيان القرية وعددا من أفراد قبيلة الجاكان، وخطب فيهم خطبة عدد لهم فيها " محاسن السلم الفرنسي " الذي ينعمون به مذكرا إياهم بالعديد من قيادهم الذين قُتلوا في نزاعات مع القبائل المجاورة. كما أصغى للقياد والأعيان وللمشاكل التي يواجهونها أثناء تأدية عملهم، مع الثورة ومع الإدارة الاستعمارية في ظل حالة الحرب السائدة [1].

2- 6 زيارة قاضي تمبوكتو إلى أدرار:

ومن العبادلة، انتقل قاضي تمبوكتو إلى كل من بني عباس فقرزيم ثم كرزاز فأدرار حيث نزل بها ضيفا على السيد الحاج أحمد قاسم – ولعله آقاسم- التاجر ذو النفوذ الكبير، الذي منحه شاحنة تنقّل بها إلى مسجدي المدينة اللذين التقى فيهما بأغلب الشخصيات التي كان ينوى الالتقاء بها. وهي الشخصيات التي كان من المفروض أن يلتقي بها لدى مسؤول الشرطة في ساعة معيّنة، مثلما رتب لذلك الحاكم العسكري لملحق أدرار، الذي وجّه استدعاءات لهاته الشخصيات دون شرح للأسباب، فأثار ذلك حالة من الهلع والخوف لديهم لجهلهم بأسباب ذلك.

لم يورد قاضي تمبوكتو في تقريره أي تفاصيل عن مهمته ومساعيه مع الشخصيات التي إلتقى بها في أدرار ولا عن النتائج التي حققها ولا عن الصعوبات التي واجهته. كما أنه لم يتكلم أيضا عن موضوع فصل الصحراء إلا عابرا عند ذكره لأحد شيوخ من أصحاب النفوذ بالمنطقة الذي يكون قد عرض عليه « وضع واستغلال نفوذه في خدمة بقاء النفوذ الفرنسي وتنظيم الصحراء الفرنسية منفصلة عن إفريقيا الشمالية وإفريقيا السوداء. ولكنه يحتاج لتحقيق ذلك الحصول على دعم ومساعدة السلطات المحلية » [2]. فبادر قاضي تمبوكتو إلى

[1] – نفس المصدر السابق، ص 23.

[2] – نفس المصدر السابق، ص 31.

تقديمه إلى الحاكم العسكري الذي وعده بزيارته في زاويته والتنسيق معه في هذا الموضوع.

وقبل مغادرته لأدرار، رأى قاضي تمبوكتو أن من واجبه أن يشير إلى أمر فيه مصلحة كبيرة وهو ضرورة نسج علاقات مستمرة ومبنية على الثقة بين الحاكم العسكري للملحق والإمام الأكبر محمد ولد الكبير المدرس بأدرار والزعيم الديني والمدرس بسالي مولاي أحمد ولد مولاي إدريس لما لهما من علاقات ونفوذ في إقليمي الواحات وعين الصفراء [1].

وإذا تعلق الأمر بنفس الاسم، فإن الشخصية الأخيرة هي الوحيدة التي تركت لنا شهادة محلية عن زيارة هذا القاضي إلى أدرار [2] .

علما أن قاضي تمبوكتو كان ينوي خلال زيارته لأدرار القيام بزيارة استعلامية إلى زاوية كنتة، للالتقاء ببعض الأفراد من قبيلة كنتةُ توات، من الذين لهم قرابة بالشيخ حمادي، قائد جيش التحرير الوطني بوادي دراع [؟]؛ كما كان ينوي الاستعلام حول بعض الوطنيين التابعين لناحية السودان. لكن الحاكم العسكري لأدرار رفض منحه سيارة لهذا الغرض فصرف النظر عن هاته الزيارة.

وواضح من كلام قاضي تمبوكتو أن زيارته لهاته المنطقة لم تكن الأولى، فقد زارها العام الماضي، سنة 1955، وهي الزيارة التي لا نعرف عنها شيئا، لكنها بالتأكيد لم تكن زيارة عادية لأنه خُص حينها باستقبال خاص من طرف الحاكم العسكري للملحق، الضابط ڤويمبروتريبه **(Chef de Bataillon Guimbretriere)** الذي وضع تحت تصرفه سيارة خاصة لتنقلاته. كما قام

---

[1] – إقليمي الواحات و عين الصفراء هما إثنان من أربعة آقاليم المشكلة لما كان يعرف بنظام " أقاليم الجنوب الجزائري ". الإقليمان اخران هما إقليمي : غرداية و توقرت

[2] – الشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسني، **نسيم النفحات من أخبار توات ومن الصالحين والعلماء الثقات**، مداد للطباعة و النشر، الطبعة الثانية 2012، ص 93– 97.

الحاكم العسكري لمركز رڤان آنذاك بمرافقته في جولة طويلة لزيارة كل الزوايا الموجودة على طول الطريق الممتدة من أدرار إلى رڤان.

2- 7 زيارة قاضي تمبوكتو إلى أولف

ومن أدرار توجّه قاضي تمبوكتو إلى أولف، التي وجد بها تنظيما محكما، فقد جمع له الحاكم العسكري كل الأعيان والزعامات الدينية والقياد فخطب فيهم. ولما استشعر ترددهم وإحجامهم عن إرسال أولادهم إلى المدرسة الفرنسية أثبت لهم بالنصوص الدينية المصلحة الكامنة في إرسال أطفلهم لتعلم الفرنسية وما يترتب عن ذلك من آثار حسنة، كتسهيل التواصل مع الإدارة وممارسة التجارة.. وغيرها. وهو أمر لم يكن يخفى عليهم، ولكنهم – كما يقول القاضي- «هم مثلي قلقون من الدور السلبي الذي يقوم به بعض المُعلِمين ومُدراء المدارس، الذين يحاربون التقاليد الإسلامية بمنح التلاميذ تكوينا مُلحدا، وتنشئتهم ليكونوا مستقبلا رجالا من أصحاب الأفكار السياسية الثورية، في منتصف الطريق بين التقاليد الإسلامية الحسنة والمفاهيم الغربية. فيرفضون بذلك العيش في وسطهم العائلي التقليدي الذي لا تعوزه النبالة. فيغدو ديدنهم تعاطي السياسة والتطلّع لحكم البلاد في حين أنهم لا يتوفرون على الكفاءات اللازمة لذلك»[1].

ومن طريف ما سجله قاضي تمبوكتو خلال زيارته إلى أولف هو لفته انتباه الإدارة الاستعمارية إلى الشاب الشريف مولاي عبد الله بن مولاي أحمد، وهو تاجر متواضع، لكنه سافر كثيرا وبدا له أكثر عصرية واطلاعا من أقرانه. فقد بادر هذا الأخير بمعية سبعة عشر من رفاقه، من بينهم الممرض محمد ولد

---

[1] - CAOM 93- 4283, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou Mohammed Mahmoud en Algérie, du 26 décembre au 10 janvier 1957, p. 32.

بعض الردود تكون قد تحفظت على بعض النقاط التي أوردها القاضي في هذا الموضوع – أي موضوع التعليم-، و التي بدت لا تعكس حقيقة فكر محدثيه، إما لأنه أساء تأويلها أو لأنه ربما أقحم فيها و لو جزئيا بعض أفكاره الخاصة في هذا الموضوع.

CAOM, boite n° OA 15, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou, n° 444/AS/S., 15 avril 1957.

سيدي أحمد ولد أوبا إلى التشارك لجمع مبلغ لشراء مذياع للاستماع إلى الأخبار. وهو ما رأى فيه الشيخ نوعا من الخطورة، لأنه يعكس المشاعر الوطنية لهدا الشاب، الذي بالرغم من قلة همته- حسب تعبير القاضي- يمكنه أن يجر وراءه العديد من الشباب و(الحراطين) الذين سبق وأن لفت الأنظار إلى نضجهم السياسي.

لم يورد قاضي تمبوكتو في تقريره أي ذكر للنتائج التي حققها بأولف، لكن جاء في النشرة الاستعلامات السياسية لإقليم الواحات لشهر جانفي 1957 ما نصه : « إن شخصية القاضي ورساخة علمه والتأويلات التي كان يعطيها للأحداث الحالية قد أبهرت وبصفة إيجابية مستمعيه، مما يدل على أن الهدف المطلوب قد تم تحقيقه » [1].

2- 8 الزيارة الثانية لقاضي تمبوكتو إلى بشار وإلى القنادسة

ومن أولف، انتقل قاضي تمبوكتو إلى بشار التي خطب في مسجدها خطبة موالية للفرنسيين أمام جمع غفير من الأعيان والقياد والشخصيات الدينية. وقد أكّد له سكانها، من الذين يتقاسمون أفكاره، بأنهم لا يريدون الانفصال عن فرنسا المتروبول ولا الارتباط بالمغرب لأنهم لا يجهلون ما قدمته فرنسا لإفريقيا الشمالية. ولكنهم عبروا له في نفس الوقت عن امتعاضهم من وضع مدينة بشار. وهو امتعاض سابق لاندلاع الثورة سببه قيام الإدارة بالاستحواذ على المصدر الوحيد للماء الذي كانت تُسقي به بساتينهم وزراعاتهم وقامت بتحويله لسقي بعض الحدائق العامة وتزويد بعض الخواص من الأوروبيين والجزائريين المندمجين.

ومن بشار، قام قاضي تمبوكتو بزيارة خاطفة إلى القنادسة للقاء شيخ زاويتها سي لعرج عبد الرحمان وبعض أفراد قبيلة الجاكان. وهي الزيارة الثانية للقاضي لهاته

1 - CAOM, boite n° OA 15, Territoire des Oasis, Bulletin de renseignements politiques, mois de janvier 1957.

المدينة، التي يكون قد زارها في نوفمبر 1955 ونزل بها ضيفا على شيخ زاويتها سي لعرج عبد الرحمان. ولأن السلطات المحلية لم تقم بواجبها في إخطار هذا الأخير بقدوم القاضي فقد تعذر على القاضي الالتقاء به خلال هاته المرة. أما بالنسبة لأفراد قبيلة الجاكان فقد قام حاكم القنادسة بإحضار بعضهم أمام المركز. ولأنهم حشدوا في قاعة واحدة فإنه لم يتسنى للقاضي الحصول على المعلومات التي كان ينوي الحصول عليها خلال لقاءات فردية معهم. ومن القنادسة عاد قاضي تمبوكتو إلى بشار ومنها طار إلى الجزائر [1].

3- الزيارة الثانية للقاضي تمبوكتو إلى الصحراء الجزائرية، ديسمبر 1957

خلال هاته الزيارة، زار قاضي تمبوكتو إقليم الواحات وتحديدا : ورقلة، تمنراست، الزاوية الكحلة (**Fort Flatters**) قرب برج عمر إدريس، جانت وإليزي . أما الهدف المبتغى من هاته الجولة فيتمثل في « إفهام سكان الصحراء ضرورة تحرير المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية **O.C.R.S.** سياسيا من كل تدخل للأقاليم المجاورة سواء كانت أقاليم إفريقيا السوداء أو الجزائر »[2]. وتحقيقا لذلك، سيحاول قاضي تمبوكتو «إقناع الأعيان بهاته المناطق بتوجيه عرائض ممضاة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ومسؤولين سامين آخرين في الحكومة الفرنسية – مثلما فعل ذلك أعيان تمبوكتو– للحصول على توحيد للصحراء الفرنسية دونما روابط مع الأقاليم المجاورة » [3].

بتاريخ 24 ديسمبر 1957، كان قاضي تمبوكتو قد أكمل جولته إلى هاته المناطق، حيث مكنته الإدارة الاستعمارية من الالتقاء بأغلب الشخصيات التي كان يودّ الالتقاء بها، ما عد الزعيم التارقي الإمرار إبراهيم أف أبكدا، الذي تعذر لقاؤه به لأنه كان متواجدا بمعسكر خيامه على بعد اثنتي عشرة ساعة من

[1] - CAOM, boite n° 93- 4283, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou Mohammed Mahmoud en Algérie, du 26 décembre au 10 janvier 1957, p. 36.
[2] - CAOM, boite n° 93- 4283, document manuscrit.
[3] - CAOM, boite n° 93- 4283, document manuscrit.

جانت. وهو ما ترك شيئا من الخيبة في نفسية القاضي، جعلته يشعر بأنه لم يؤدي مهمته على أكمل وجه [1].

وبالرغم من أن الإدارة الاستعمارية بعين المكان قد بذلت كل ما في وسعها لتحقيق هذا اللقاء إلا أنه لم يكن بالإمكان مطالبة زعيم توارق الآجار، في ظل كبر سنه وتردي وضعه الصحي، القيام بقطع كل هاته المسافة الطويلة للتنقل إلى جانت. فإذا أضفنا إلى هذا أن الزعيم التارقي كان من القلائل، إن لم نقل الوحيد، الذي لم ينبهر كثيرا بخطاب القاضي، فإنه من المؤكد أنه ما كان ليتحمس كثيرا لهذا التنقل المُتعب. لكن القاضي الذي بدا حريصا على تحقيق مثل هذا اللقاء فقد عرض القيام بزيارة ثانية للقاء الإمرار، زعيم توارق الآجار، في الثالث عشر من شهر جانفي 1958 على أن يتم استدعاء هذا الأخير مسبقا. لكن الإدارة المحلية بدت متحفظة على رجوعه السريع وفي ظرف متقارب جدا [2].

أما بالنسبة لزيارة القاضي إلى تمنراست، فقد تزامنت وحضور فريق من المفتشين التابعين لمديرية أمن الإقليم **(D. S. T.)** الذين أُوفدوا لتوقيف عدد من العناصر المتهمة بالانخراط في خلايا التنظيم الثوري لجبهة التحرير الوطني. كما تزامنت زيارته إلى ورڤلة مع وجود الفرقة الأجنبية الأولى للمظليين **(1° R. E. P.)** التي أضفى تواجدها نوعا من التوتر العام على المدينة وهو الشيء الذي تأسف له القاضي مصرحا بأن الوسائل المستعملة « تتعارض وجو الثقة السائد تجاه فرنسا والذي ما فتئ يسود هذا الإقليم»[3].

أما بالنسبة لنتائج زيارة القاضي إلى إقليم الواحات فقد اعتبرتها نشرة الاستعلامات السياسية لشهر جانفي 1958 لإقليم الواحات بأنها كانت ناجحة

---

[1] - CAOM, boite n° 93- 4283, Tournée du Cadi du Tombouctou, 26 décembre 1957.

[2] – نفس المصدر السابق.

[3] – نفس المصدر السابق.

وحققت الأهداف المنتظرة منها، حيث نقرأ ما يلي: « يجب الاعتراف أولا بأن جهود القاضي لجلب السكان إلى الفكرة المتمثلة في ضرورة تحقيق صحراء فرنسية موحّدة تحت الوصاية المباشرة للمتروبول والتي تتمتع باستقلالية تامة تجاه الأقاليم المجاورة، قد كُللت بالنجاح. وبالفعل، فقد انطلقت من ورقلة ومن عين صالح رسائل تتضمن إمضاءات أهم الأعيان موجهة إلى السلطات العليا في الجمهورية. مما يعني أن قاضي تمبوكتو قد أدى مهمته كممثل مبعوث للمنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية»[1]. أما بالنسبة لخطاباته لصالح الارتباط بفرنسا فقد كان لها وقع قوي على السكان لأنها اعتمدت على حجج مستمدة من القرآن؛ وهو ما جعل سكان التديكالت ينبهرون من سعة علم القاضي وفصاحته.

وفي حين أبدى بعض ضعفاء النفوس من الزعماء المحليين دهشتهم وامتعاضهم للسلطات المحلية من « رؤية أجنبي عن الإقليم أتى ليعطيهم دروسا في الولاء »، فإن الزعيم التارقي للهقار، الباي آڤ أخاموخ، وبالرغم من اعترافه بشخصية القاضي، فقد لزم حذره المعتاد وبقي محافظا على تحفظه تجاه مشروع تجميع التوارق. أما بالنسبة لزعيم التوارق الآجار براهيم آڤ أبكدا فقد بدا غير متعجلا لرؤية القاضي[2]، الذي بخلافه كان حريصا على لقائه. وبالفعل عاد قاضي تمبوكتو في زيارة خاصة إلى جانت بتاريخ 10 و11 فيفري 1958، خصيصا من أجل الالتقاء بزعيم توارق الآجار براهيم آڤ أبكدا، وقد التقى به فعلا في خيامه خارج جانت. خلال هذا اللقاء حاول قاضي تمبوكتو أن يقنع محدثه بأنه إنما جاء بمبادرة شخصية منه وأن مساعيه لدى الأعيان من أجل إرسال عرائض ممضاة لمطالبة الحكومة الفرنسية بإنشاء صحراء فرنسية مستقلة تماما عن

[1] - CAOM 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, mois de janvier 1958.
[2] - CAOM, 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, mois de janvier 1958.

الأقاليم المجاورة هي مبادرة لم تُمل عليه من طرف الحكومة الفرنسية. لكن مثل هذا الكلام ما كان لينطلي على الإمرار ولا على غيره من الأعيان، الذين لم تكن على أعينهم غشاوة ليروا الوسائل التي تضعها الإدارة الاستعمارية تحت تصرفه والرعاية التي تحيطه بها من كل جانب. لذلك، لم يتأخر الزعيم التارقي، الذي قلما خاب حدسه في مثل هذه الأمور، من استخلاص العبر من هاته الزيارة، التي تدل بحسب خبرته الطويلة للفرنسيين على واحد من الأمرين : فإما أن فرنسا تخطب وده لأنها في وضع ضعيف؛ وإما أنها تخطب وده لأنه في وضع قوي، هو نفسه لا يدرك مدى قوته. وأيا كان الأمر فهو خطير بالنسبة للفرنسيين: «لأنه متى أصبح الزعيم التارقي واعيا بأهميته وبالدور الذي يمكن أن يلعبه، فإن شروطه ومتطلباته ستتزايد باستمرار». وأشد ما كان يُخيف الفرنسيين « هو أن لا يرى الزعيم التارقي في مسعى القاضي سوى مجرد مناورة من الحكومة الفرنسية للاحتفاظ بالصحراء في حالة اضطرارها لمنح الاستقلال للجزائر» [1]. وبنهاية شهر مارس من نفس السنة كان واضحا بأن توارق الآجار، تماما مثل توارق الهقار، لن يأخذوا بعين الاعتبار كلام قاضي تمبوكتو ولن يقوموا بإرسال عرائض ممضاة لمطالبة الحكومة الفرنسية بإنشاء صحراء فرنسية مستقلة عن الشمال [2].

تلك هي إجمالا أهم الوقائع التي وقفنا عليها حول مساعي الشيخ محمد محمود بن الشيخ المعروف بقاضي تمبوكتو لفصل الصحراء الجزائرية عن الشمال. ولا ندري ما إذا كانت للقاضي جولة مماثلة خلال نفس الزيارة إلى مدن وواحات الجهة الغربية للصحراء الجزائرية (بشار، لعبادلة، بني عباس، تميمون، أدرار وأولف..) لحث أعيانها على توجيه عرائض ممضاة لنفس الغرض. كما لا

[1] - CAOM, 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, mois de février 1958.
[2] - CAOM, 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, mois de mars 1958.

ندري أيضا النتائج الإجمالية التي يكون قد حققها بنهاية المطاف، لأنه بين مارس 1958 وجويلية 1962 هناك فترة طويلة قد يتحول فيها الثابت ويثبت فيها المتحول. كما لا نعلم أيضا إذا ما كانت للقاضي جولة مماثلة بإقليم غرداية (الجلفة، الأغواط، غرداية، متليلي والمنيعة) وإن كنا نستبعد ذلك. على أن ما نعلمه، أنه كانت للقاضي زيارة أخرى للجزائر خلال شهر أكتوبر 1959 خصصها كالمعتاد لزيارة بعض مناطق الشرق الجزائري. ونحن نتساءل عما إذا لم تكن له زيارة أخرى قبل هذا التاريخ أي في ديسمبر 1958؛ وعما إذا لم تكن له زيارات إلى الصحراء على هامش زياراته الرسمية إلى شمال الجزائر.

أخيرا، بقي لنا أن نتساءل عن الدوافع التي تجعل رجل دين مسلم، عارف بكتاب الله ومُلم بشريعته، محيط بفقه الولاء والبراء، يُسخّر نفسه وعلمه لخدمة مشاريع ومخططات المستعمرين ؟

إنه لمن الصعب الخوض في إجابة على مثل هذا السؤال، حيث في غياب إلمام واسع بحياة الشيخ وتطور فكره تصبح هاته الإجابة ضرب من التخمين. ومع ذلك، فسنحاول تلمس إجابة لهذا السؤال.

يُعد الشيخ محمد محمود بن الشيخ عيّنة من ذلك الجيل الذي برز في الخمسينات من القرن الماضي والذي جمع في شخصه بين التكوين الديني القوي، الزعامة الدينية لوسطه، وتعاطي السياسة، التي تعاطاها إما دفاعا عن مصالح شعبه أو تحقيقا لطموحاته الشخصية في المنصب والجاه، حيث يمكن أن نذكر من بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر : العلامة والمناضل المغربي علال الفاسي، 1910– 1974 الذي يكاد مسار حياته يتطابق إلى حد كبير مع مسار الشيخ محمد محمود، 1910– 1973، ما عدا في موقفهما من الاستعمار والمستعمرين. كما أن علال الفاسي كان غزير الانتاج وخلف ما لا يقل عن عشرين عنوانا؛ والبروفيسور سي حمزة بوبكر 1912– 1995، الذي

يتحد مع الشيخ في مساره السياسي وموقفه من المستعمر، والذي خلّف لنا ترجمة قيمة للقرآن الكريم إلى الفرنسية؛ ثم هناك العلامة الشيخ بيوض عبد الله بن عمر 1899- 1982 الذي ترك لنا تفسيرا لكتاب الله عزّ وجل. وعلى نفس المنوال كان الشيخ محمد محمود، فقد كان عالما وقاضيا في مدينته تمبكتو وترك ما لا يقل عن ثلاثين مؤلفا في شتى العلوم والفنون. أما بالنسبة لتعامله مع الفرنسيين وتسخير نفسه وعلمه لخدمة مخططاتهم ومشاريعهم الاستعمارية، فنحن لا نستبعد أن ذلك كان منه طلبا لجاه ومنصب، وربما يكون قد تلقى وعودا بمنحه منصبا ساميا في «الجمهورية الصحراوية » المزمع إنشاؤها إن جدّ واجتهد، ولعل هذا ما يفسّر اجتهاده وهمته في تأدية المهمة الصحراوية التي أوكلت إليه.

ومع ذلك، فإن للشيخ في علمه وذكائه ورجاحة عقله ما يجعله أكبر من مجرد " مرتزق" عادي يعمل من أجل مقابل. فواضح أن الشيخ كانت تحركه قناعة داخلية ونظرة شخصية للأمور. فهو لم يكن يرى في فرنسا الاستعمارية شرا محضا؛ كما أنه لم يكن يرى في الخروج عليها والتحرر منها خيرا محضا أيضا. ولعل ذلك ما خلص إليه من استقرائه لتاريخ منطقته والصحراء بصفة عامة، ومن زياراته إلى العديد من الدول العربية والإسلامية وما آلت إليه أوضاعها في ظل الحكم الوطني بعد الاستقلال.

فبالنسبة لإستقرائه لتاريخ منطقته وللصحراء، فواضح من كتابه " تاريخ الصحراء والسودان..."، أنه لم يجد فيه سوى تاريخ طويل حالك من الفوضى والظلم والاستبداد: سلب ونهب، غارات متبادلة، استرقاق، وأكل لأموال الناس بالباطل من طرف حكام جائرين ظالمين. وباختصار حالة من الفوضى لم تنته إلا بمجيء الفرنسيين، الذين نشروا الأمن وأخذوا على يد الظالم. وهي قناعة بقي محتفظا بها إلى ما بعد استقلال هاته المناطق وجلاء الفرنسيين عنها. ولذلك، فليس غريبا أن يُعنون بعض فصول كتابه السابق الذكر بعنوان : « فصل في حال حكم الفرنسيس في هذا القطر وبيان فائدته الكبرى التي لا يعقلها إلا

العالمون » [1]، حيث جاء في مدحه لهم : « اعلم أن هذا القطر السوداني وما حوله كأزواد ونواحيه، كان قبل دخول الفرنسيس في الهرج الكبير والظلم الخطير ونهب الأموال وسفك الدماء بالتوال وفساد أحكام الله وإتباع الشيطان في الموبقات والملاهي. فالمسكين مظلوم، وصاحب الحق محروم، والناصح مشئوم، والفقير مجروم، والقاضي العدل مظلوم، والجائر مرحوم، والوزير ظلوم، والأمير غشوم. فهذا مظلوم بلا سبب، وهذا مقتول بلا ذنب، وهذا منهوب ماله، وهذا مخبب عياله، فلا راحم ولا ناصر، فبين ظالم مغلوب أو ظلام جائر، حتى فاء الله بهاته الدولة الفرنسية وحكّمت أمرها في الدولة التارقية والحسانية، فقمعت الظالم وردت المظالم وعمرت الأرض وأقامت بها بكل ممدوح فرض. فأطفأت نار الحرب القديمة، وأجلت نور الحق العديم. وردت كل فرقة إلى أنفع سعيها، وأرضعت كل قبيلة أفضل ثديها. ففرح بذلك العلماء، وجهل بذلك الفرقة الصماء. والحاصل أن دخول الفرنسيس في الأرض وحكمه فيها اكبر فائدة وأنفع عائدة مما كان فيه الناس قبلهم. وهذا يعلمه العلماء ويجهله الجهلاء. وإني وصي قبلي من لدن دخولهم الحمد لله ممن عرف ذلك وأقرّ بما هنالك. وفوائد هذه الدولة لا تحصى ولا تستقصى. أولها أنها أهل عدل وإصلاح لجميع الأمور الدينية والدنيوية...» [2].

أما بالنسبة لزياراته إلى الدول العربية الحديثة[3]، والتي كان عدد هام منها قد حصل على استقلاه قبل نهاية الخمسينات، فنتوقع أن حالها وما آل إليه أمرها

---

[1] – يُنظر : محمد محمود الأرواني، تاريخ الصحراء و السودان و بلد تنبكت و شنقيط و أروان في جميع البلدان، دراسة و تحقيق و تقديم أ. د. الهادي المبروك الدالي، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، 2008، الصفحات : 224، 281، و ما يليها.

[2] – المصدر السابق، ص 224.

[3] – من بين الدول العربية التي يكون الشيخ محمد محمود الأرواني قد زارها، هناك : الجزائر، ليبيا، تونس، المغرب، مصر، السودان، المملكة العربية السعودية، الأردن، العراق، سوريا، لبنان و القدس. أنظر : http://mohamedtaleb.blogspot.com/2010/12/blog-post_9793.html

بعد الاستقلال لم يعجبه كثيرا. فالاستقلال والتحرر لم يحُل كل مشاكلها ولم يقضى فيها على البؤس والجهل والمرض ولم يحقق لها العدالة التي كانت تتطلع إليها؛ بل على العكس من ذلك، فإن الصراع والتطاحن على السلطة والاستبداد بها قد فجّر فيها أهوالا من الشر لم تكن معروفة في عهد الاستعمار. كما أن هاته الدول المستقلة حديثا ليس لديها لا الأموال ولا الإطارات ولا التقنيين ولا التنظيمات التي عند المستعمر لتحل مشاكل تنميتها. ولذلك صرح القاضي أمام سكان تندوف خلال إحدى زياراته لهذه المدينة سنة 1955 بأن أوضاع الفلاحين في مصر– التي حصلت على استقلالها منذ سنة 1922– أكثر بؤسا من أوضاع أهالي الجزائر، مما يدل على أن الاستقلال وإحداث القطيعة مع المستعمر لن تحل كل مشاكل المسلمين. وكأني بالقاضي، بعد أن قلّب الأمور على مختلف أوجهها، اختار جانب الفرنسيين وانتصر لهم وسار في موكبهم منفذا لخططهم ومخططاتهم، ومنها فصل الصحراء الجزائرية عن الشمال.

وفي هذا المسعى، لا تفوتنا الإشارة إلى أن الشيخ محمد محمود كان خلال نفس هاته الفترة المحرك الأول لمبادرة كانت تهدف لإنشاء كيان مستقل بشمال ما يعرف حاليا بدولة مالي، وهي المبادرة التي وضعت فيما بعد الأساس للحركة الانفصالية بشمال هذه الدولة. فبإيعاز منه، بادرت، بتاريخي 30 أكتوبر 1957 و30 ماي 1958، ثلاثمائة شخصية من الزعماء التقليديين والأعيان والتجار بحوض النيجر، بكل من تمبوكتو وڤاو وڤوندام، إلى إرسال عريضة ممضاة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية لمطالبته بخلق كيان خاص بهم، تحت الوصاية الفرنسية ومستقل عن إفريقيا الشمالية وإفريقيا السوداء. ومما جاء في هاته العريضة : « إنه يشرفنا أن نصرح لكم، مرة أخرى وبصدق، عن عزمنا البقاء دائما فرنسيين مسلمين مع احتفاظنا بقانون أحوالنا الشخصية الخاص والعزيز علينا. كما نؤكد لكم معارضتنا التامة لكل مسعى لإدراجنا ضمن نظام مستقل أو فيدرالي لإفريقيا السوداء أو إفريقيا الشمالية. إن مصالحنا وتطلعاتنا لا يمكن بأي

حال الدفاع عنها بطريقة مقبولة طالما بقينا مرتبطين بإقليم ممثلا بقوة وتسيّره أغلبية سوداء نختلف معها في العرق والمصالح والتطلعات. ولذا نلتمس من جنابكم تدخلا عادلا لفصلنا بأسرع ما يمكن سياسيا وإداريا عن السودان الفرنسي وإلحاقنا ببلادنا ومنطقتها حوض النيجر والصحراء الفرنسية التي ننتمي إليها تاريخيا وعرقيا» [1].

[1] – *Cf.* Edmond Bernus et autres…, Nomades et commandants, Administration et sociétés nomades dans l'ancienne A.O.F., Karthala, 1993, p. 225.

أما حول نص العريضة فينظر :

http://www.azawad-air.com/histoire/537-lettre-des-chefs-coutumiers-et-notables-a-sa-majeste-monsieur-le-president-de-la-republique-francaise.html

خاتمة :

من خلال ما سبق يتضح جليا أن الشيخ محمد محمود بن الشيخ، المعروف بقاضي تمبوكتو قد اضطلع بدور بالغ الخطورة في تنفيذ مشروع استعماري خطير كان يهدف إلى فصل الصحراء الجزائرية عن وطنها الأم الجزائر. وأن هذا المشروع الاستعماري كان يتمثل في جمع المناطق الصحراوية التابعة للجزائر – وبالأخص الجزائر– وموريطانيا ومالي والنيجر وتشاد ضمن وحدة سياسية خاضعة لفرنسا ومستقلة تماما عن الأقاليم المحيطة بها وهذا لتستأثر فرنسا بخيراتها الباطنية. وأنه لتحقيق هاته الغاية، فإن السلطات الاستعمارية قد اعتمدت طرقا ووسائل عدة من بينها التأثير وبمختلف الوسائل على ما يسمى بـ " الأعيان " لرفع عرائض ممضاة إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية ومسؤولين ساميين بالحكومة الفرنسية لـ " مطالبتهم " بجمع هاته المناطق ضمن كيان سياسي مستقل عن الأقطار المجاورة، بما يجعل من فصل هاته المناطق مجرد استجابة وتحقيق لرغبة عميقة صادرة من سكانها المحليين.

وبالرغم من أننا تتبعنا وأمطنا اللثام عن جانب من الموضوع إلا أن هناك أسئلة عديدة تحتاج إلى إجابات موثقة من مصادر أرشيفية حتى تكتمل أركان هاته المؤامرة ويكتمل فهمنا لها.

قائمة المصادر والمراجع :

1– مصادر أرشيفية، أرشيف ما وراء البحر، آكس أون بروفانس، فرنسا :

CAOM, boite n° 93- 4283, lettre du Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie à Monsieur le Préfet de Constantine, n° 2206 du 15 septembre 1955.

CAOM, boite n° 93- 4283, Note succincte du SLNA, 23 septembre 1955.

CAOM, boite n° 93- 4283, coupures de presse, *La Dépêche de Constantine* du 24 septembre 1955.

CAOM, boite n° 93- 4283, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou Mohammed Mahmoud en Algérie, du 26 décembre au 10 janvier 1957.

CAOM, boite n° 93- 4283, SLNA de Constantine, Visite à Constantine du Cadi de Tombouctou, Mohamed Mahmoud ould Cheikh, n° 28/NAC, 10 janvier 1957.

CAOM, boite n° 93- 4283, document manuscrit.
CAOM, boite n° 93- 4283, Tournée du Cadi du Tombouctou, 26 décembre 1957.
CAOM, boite n° 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, janvier 1958.
CAOM, boite n° 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, février 1958.
CAOM, boite n° 93- 4120 à 4121, Bulletin de renseignement politique du Territoire des Oasis, mars 1958.
CAOM, boite n° 23H 72, Commune indigène de Tindouf, Bulletin de Renseignements n° 11.
CAOM, Boite n° 23H 74, Territoire Militaire d'Ain Sefra, Bulletin de Renseignement, mois de novembre 1956.
CAOM, boite n° OA 15, Rapport de mission du Cadi de Tombouctou, n° 444/AS/S., 15 avril 1957.
CAOM, boite n° OA 15, Territoire des Oasis, Bulletin de renseignements politiques, mois de janvier 1957.

2- أبحاث أكاديمية :

بن داره محمد، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، رسالة ماجستير مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر تحت إشراف الدكتور جمال قنان، 1999، مخطوط

بن داره محمد، الحرب النفسية الفرنسية ورد فعل الثورة الجزائرية 1955- 1960، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف الدكتورة مسعودة يحياوي، جزآن، 2010، مخطوط

Guentari Mohammed, Organisation politico- administrative et militaire de la Révolution algérienne de 1954 à 1962, volume II, Alger, O. P. U., 1994.

3- شهادات :

بيوض، عبد الله بن عمر، أعمالي في الثورة، نشر جمعية التراث القرارة- غرداية، 1990، 147 ص.

مولاي أحمد الطاهري الإدريسي الحسني، نسيم النفحات من أخبار توات ومن الصالحين والعلماء الثقات، مداد للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 2012، 311 ص.

Bernus Edmond et autres…, Nomades et commandants, Administration et sociétés nomades dans l'ancienne A.O.F., Karthala, 1993, p. 225.

4- مراجع :

محمد محمود الأرواني، تاريخ الصحراء والسودان وبلد تنبكت وشنقيط وأروان في جميع البلدان، دراسة وتحقيق وتقديم أ. د. الهادي المبروك الدالي، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، ليبيا، 2008، 364 ص.

5- مراجع من الويب :

http://www.azawad-air.com/histoire/537-lettre-des-chefs-coutumiers-et-notables-a-sa-majeste-monsieur-le-president-de-la-republique-francaise.html